"الدّيوَنْجِيَّة".. طبقة اجتماعيّة أسهمت في تثقيف النكتة

ابراهيم السواعير*

هل يمكن (تثقيف) النكتة الشعبيّة، أي أن تتطوّر في فحواها وشكلها، لتساير المجتمعات أولًا، وليتم توظيفها في خدمة النقد وتوصيل الرسالة؟!..وهو سؤال يخرجنا من دائرة كونها وسيلةً للإضحاك أو إزجاء الوقت إلى كوميديا لاسعة تحملها عبارات عادةً ما تتكثّف متخففةً من حكايتها، باتجاه السخرية من واقعٍ أليم.
وأحدد هنا صبغة التثقيف في المجال السياسيّ وما يحمله من تبعات الاقتصاد والشكوى من متغيرات كانت عيون المجتمعات مفمضةً عنها حتى بلوغها شرط التحرر والتعبير.

الفنون الشعبية فالمجال رحب بين (النكات البريئة) التي كانت تحملها فضفضات المجالس أو حتى الوعظ الاجتماعيّ بالنكتة؛ إذ أنّ قمّة استثمار النكتة- عندي- أن تجاهد في التخفيف من حدّة الأزمة السياسيّة بمجاذبتها أطراف النقد والمعارضة والدعوة إلى زوالها بالضحك، وهو ضحكٌ مدروس تشترك فيه النّخب بغرض التوعية الشعبية ومناوأة القرار السياسي، لنكون أمام (كوميديا سوداء) توهّجت عبر المدد الزمنية للتعبير، فراجت عقب الألفية، وما تزال تؤتي ثمارها بخصوبة فترة (الربيع) الذي اجتاح بلدان العالم العربي وفتح أبواق الشعوب في استيراد النماذج الساخرة التي كانت في حكم المحظور، أو كان يتم التحايل بالرمز وسيلةً لتمريرها في فترات كانت مشاركة الشعوب متواضعةً في صنع القرار.

ومع أنّ شرط الحرية هذا ومستجدات المرحلة السياسية وشيوع وسائل التواصل خلق أدباء ساخرين عربًا بالجملة؛ تكثر في ثنايا سطورهم وحكاياتهم (اللسعات) بالتشبيه والمفارقة والقياس بالظرف، إلا أنني أحاول التدارس مع القارئ في هذه الصفحات، متناولًا صناعة النكتة في الاستفادة من قولنا إنّ (اللفظ حمال أوجه)، أو يمكن استثماره لغايات شديدة الخطورة في النقد والاستفزاز، إذ نحن أمام مسألة لغوية في أساسها وانزياحات ذكية تقصّيتُ كثيرًا منها في أحاديث طبقات اجتماعيّة- مهمّشة في الغالب- فرضت وجودها وباتت تشكّل وعاءً خصبًا لدراسات متأنّية، وتحفزنا بما تمور به من شكاوى وشيفرات خلقتها ظروف هذه الطبقات.والعجيب أنّ هذه الطبقات، أو ما نسميهم بـ(الديونجيّة)، تُماثل في انزياحاتها وبحثها عن المختلف في المعنى المتشابه في اللفظ، ما يدرسه طلاب الأدب على مقاعد الدرس، وما يمارسه الشعراء في طباقهم وجناسهم واشتغالهم على المعنى؛ فكأنّ أرضيّة الاشتغال واحدة، وكأنّ الموضوعة التي تختلف أو تتشابه بين الطرفين تخضع لهذا اللعب ذاته على اللغة.

(الدّيونجيّة)

الديونجيّة- جمع ديونجي- وتشير اللفظة إلى مرحلة متقدّمة قليلًا في الوعي الشعبي، وربّما حملت

*صحفي وكاتب أردني

نَفَس الصعاليك في التمرّد على شؤون المجتمع ونبذ قوانينه، ولعلّ حكمةً أو مثلا أو قولًا مضحكًا (نكتةً) انطلقت في سياق صياح أو عراك أو جلسة يحترم فيها (الديونجي) تراتبيّة الجلساء وأحقيّاتهم في كثير أمور، والمهم أن نظفر بالموضوع قيد النقاش في أحاديثهم مادةً للإضحاك تحمل اعتبارًا أو ندمًا أو استذكارًا، أو نقدًا لظروف يظلّ يغالبها هؤلاء الذين هم انعكاس لتسميات المهمشين أو الرصيفيين أو ما شابه.

وإذا كان (الديونجي) يمتاز في النظرة الشعبية بخبرته ومروره على كثير من مدارس الفهم الشعبي والذكاء وقراءة الأمور بسهولة وتبصّره ببواطن الكلام ومقاصده، فقد قيل إنّك إن ابتليت بديونجي- صاحب دواوين- وجاذبته أطراف المازحة فلا تلومن إلا نفسك، بل عليك أن تختصر معه وتعرض عن مناكفته؛ إذ يحمل هؤلاء كلامًا موشّىً بالسجع وتعدد الدلالة في اللفظ، فينزاحون باتجاه مفارقة الدلالة الاعتيادية- السليمة ذوقًا وعرفًا اجتماعيًا- إلى نمط جديد يحمل إحراجًا وسوء ظن.

الديونجي قادر على أن يعبث بالفهم العام ويتصرّف بالنص من واقع محفوظه وبيئته ومروره على الخبرة، وربّما ساق (النكتة) في تحويره الألفاظ أو ربطه موضوعًا ظاهرًا بآخر غير مقصود، ولكنّه يمكن وبكلّ بساطة أن يكون متداولًا، وما ذاك إلا لخفّة الديونجي وانسياب لسانه على مألوفه هو لا مألوف الآخرين، لماذا؟!.. لأنّ له منطلقات خاصّة وربما لغة وشيفرات لا يفهمها إلا جلساؤه أو (زملاؤه) أو من تتلمذوا على هذا الفهم الجديد.

وقد صوّرت السينما والأعمال الدراميّة حوارات بين هؤلاء، تحمل سخطًا على ظاهرة أو قهرًا من مصير، وكثيرًا ما يحمل عبء تلويناتهم الدلالية إنسانٌ بريء أو بسيط الخبرة الحياتية ساقته يد القدر بينهم لكي يكون جسدًا لأفهام جديدة في جوٍّ من السخرية والنقد.

الديونجي والنكتة:

من التصوّر السابق يمكننا القول إنّ الديونجي يعمد إلى تثقيف النكتة وإكسابها حياةً أخرى، تفارق ما استقرّ في الأذهان، وإذا كانت النكتة في جوهرها تعني الضحك، محض الضحك، فإنّ النكتة عند الديونجي تعني الضحك لهدف، وليس شرطًا أن يكون الهدف توعويًا أو وعظيًا، إذ هو هدف في غالبه يظهر

قدرة المتحدث على التبصّر بالأمور وخبرته الواسعة في الحياة؛ فإذا ذهب المتحدث العادي تجاه اليمين أقلقه الديونجي بتغيير فهمه ذات اليسار وربّما بالاستهزاء بالفهم القديم لصالح الفهم الجديد.

صناعة النكتة

خذ على سبيل المثال النكتة المتداولة- من غير قصدٍ إلى رصد مجموعة النكات؛ فهي كثيرة، وتتردد على الألسن وألّفت في جمعها المؤلفات؛ إذ يقول الإنسان عفوي القصد أو حسن النيّة: (مرّة واحد حب- أي أنّ أحدهم أحبّ)؛ فيجيبه الديونجي: (مرّة واحد حب طحنوه!)، والفهم الجديد واضح مع أنّه فارق الأول في قرب مفردة الطحن من الْحَب، وليس الْحُب!

وإذا قلنا إنّ إحدهم وقع في الحب، بادرنا الديونجي فقال: (مرّة واحد وقع في الحب انكسرت رجله!).. وما ذاك إلا لأنّ بديهةً حاضرةً عند هذا الخبير بتأويلات الألفاظ وربطها بمكتسبات الحياة العامة وظروف العيش. دعنا أيّها القارئ نستمع إلى هذه النكتة، وهي باللهجة المصرية: (مره واحد راح يعزي فى واحد صاحبه وهو ماشي فى الجنازه قابل بائع بطيخ فشترى واحده فالناس طول ماهيه ماشيه بتبوص للبطيخه وتقول كلنا لها راح رادد عليهم وقال محدش واخد منها حاجه!).

في الواقع، هذه النكتة مثقّفة جدًا؛ إذ تحمل وعظًا في الظاهر؛ ووعيًا عاليًا في باطن العبارة؛ إذ الناس في

فظاهر كلامها تؤمن بالموت وتدرك المصير الذي تؤول إليه، لذا تردد عبارة (كلّنا لها)، أي أن الأرض مصير كلّ البشر؛ في حين أنّ الرجل الذي انسجم مع الجنازة أدرك، أيضًا، طويّة هذه العبارة، فانطلق محذّرًا أصحاب الألباب والطموحات غير البريئة، ومنسجمًا في الظاهر؛في الظاهر؛ بقوله (محدّش واخد منها حاجة!)، فالعبارة تجوز على الوجهين في التحذير من الاقتراب من البطيخة، وتأكيد أن أحدًا من الناس لن يصحب شيئًا من دنياه إلى القبر.

لنعزز مقوّمات صناعة النكتة بهذا الشاهد الذي يشير إلى أنّ (سبّاكًا- موسرجيًا) دخل إلى حفلة فيها راقصة؛ فحلف ألا ينقّط أحد!.. فالمعنى الظاهر هو في (النقوط) وهو مال يهديه المحبون والأقارب والأصحاب لأهل المناسبة، وربما افتخروا بنثره على جسد الراقصة، إذ أقسم هذا الموسرجي بأن يكفي الحضور مؤونة (النقوط)، فينقّط عنهم!.. لكنّ مهنة الرجل تدلّ عليه؛ إذ هو يصلّح (المواسير) ويمنع أن يتسرب منها الماء، فإذا ربطنا مهنته بدلالة أخرى للتنقيط-وهو قطرات من الماء تنزّ فتملأ المكان بعد فترة- علمنا أيّ ذكاء في صانع النكتة اعتمادًا على مساندات كثيرة، منها عمل الرجل أو صناعته؛ وهنا يكمن سر الالتقاط ومتعة الإضحاك.

كثير من الشواهد ألفناها ووضعتنا بهذه الصورة؛ إذ تقول النكتة المصرية: (في واحد طلع عالمعاش معرفش ينزل!).. فكأنّ المعاش- الذي هو في اللهجة المصرية مرحلة التقاعد من الوظيفة- سلّم طلع عليه أحدهم فاستصعب النزول؛ لكنّ القول المصري (طلع عالمعاش) يبدو عاديًا في الإشارة إلى انتهاء سنوات الخدمة؛ فاستفاد صانع النكتة من لفظة (طلع) وجاء بالمعاش شيئًا يصعده الناس؛ وهكذا اكتملت لصاحبها النكتة فكان الاكتشاف.

ما الفرق، إذن، بين النكتة الشعبيّة لأناس لم يتعلموا، ربما، في مفاضلات دلالات اللفظ والاستفادة من قرائنه، وشعراء أو أدباء يشتغلون على الرمز أو يتحايلون بقدرة اللفظ على الاكتناز بالدلالات؟!.

نعم، يتناص الأدباء مع الموروث الديني وتكثر في عباراتهم المرأة، مثلا، ويفعل هذا (الديونجيّة)، أيضًا، بمفاجأتهم الدارس بمواطن الإبهار والتوليف الجديد.

النكتة السياسيّة

يتداول المثقفون والكتاب والنخب، مستثمرين وسائل التواصل الاجتماعي في الفيس بوك على سبيل المثال، جملةً من النكات السياسيّة في التعبير عن الموقف ومعاندة الظرف القاهر، وللمتتبع أن يرصد في مجموعة التعليقات اليوميّة كثيرًا من هذه النكات المثقفة التي تحمل في إضحاكها كثيرًا من الحكم والاعتبار، مع أنّ (نكات) الفيس بوك ليست كلّها في المجال السياسيّ، لكنّي ظفرت بما يؤيّد أنّ وراءها نقدًا عالي المستوى قد يكون محلّ مساءلة بالقانون،

اعتمادًا على قرائن المعنى باللفظ.

وبالتأكيد فهي تتطور عن نكات على بساطتها كنّا نلمس فيها معنى الاستسلام لقدر أو الركون إلى مصير؛ كأن نقول إنّ أقرع جرّب حظّه في السحب ففاز بمشط، أو أنّ أعمى حظي بجائزة وكانت نظّارة فاخرة، وهكذا، فنحن أمام أدب ساخر أو توريات تتقصّد وتتجرأ وتغمز من قناة الأنظمة السياسيّة أو الحكّام، وتجرّ في سياق ذلك كثيرًا من التهم في (اسكتشات) المسرح الناقدة التي تقابل بين الأضداد وتخلص إلى النتيجة محلّ الرضا والاعتبار، وربما الضجيج والثورة عند الجمهور.

ولهذه النكتة مقومات ذكية في الربط بين الوزارات والوزراء وتوريث الوزارات ومفردات التصحيح الاقتصادي والتطوير والتحديث، وكثير من مثل ذلك، إذ يكفي أن لا يسمّى هذا الوزير باسمه، بل أن يُشار إليه بأنّه الوزير (عبدالدايم)، تأكيدًا لديمومته في هذه الوزارة أو تلك.